



موقع اللغة من الهوية الثقافية
"مقاربة في ضوء النقد الثقافي"

The Position of Language in Cultural Identity:
An Approach in Light of Cultural Criticism

بكوش جميلة¹

¹المدرسة العليا للأساتذة - مستغانم - الجزائر، djamila1971@gmail.com

ملخص:

تُعَدُّ الهوية مجالاً واسعاً وحقلًا خصبًا للدراسات الإنسانية، والتفسيّة، والاجتماعية، والانثروبولوجية، والوراثية وغيرها من مجالات البحث العلمي، لذلك فإنّ الحديث عن الهوية وعلاقتها باللغة يقودنا إلى الثقافة، وما تقوم عليه هذه العناصر الثلاثة الهوية- اللغة- الثقافة مجتمعة من ثوابت، وما يتحكم فيها من متغيرات، من منظور أنّ الهويّات متغيّرة، تتشكل وفق شبكة علائقية، تقوم على دوائر شتى، وتتفرّع فيها الثوابت إلى انزياحات ثقافية، تتخذها الهوية سبيلًا لها مع تطوّر الحياة، فتجعلها فاعلة في كينونة الذات، وتبعًا لذلك، فإنّ الإشكالية التي يطرحها هذا البحث، تتجسد في جملة من الأسئلة: ما موقع اللغة من الهوية الثقافية؟ ما لأزمات التي تتعرّض لها هذه الهوية إذا تراجعت اللغة عن أداء دورها؟ وما لدور الذي تقوم به اللغة في صون الهوية الثقافية وتعزيز قيمها وترسيخ معالمها؟

كلمات مفتاحية: اللغة؛ الهوية؛ الهوية الثقافية؛ النقد الثقافي؛ الثقافة.

Summary:

Identity is a broad field and a fertile area for human, psychological, social, anthropological, genetic, and other scientific research. Therefore, discussing identity and its relationship with language leads us to culture, the constants that these three elements—identity, language, and culture—share, and the variables that govern them. From the perspective that identities are variable and are shaped according to a relational network composed of various circles, the constants branch into cultural

المؤلف المرسل: بكوش جميلة، الإيميل: djamila1971@gmail.com

deviations that identity adopts as it evolves with life, making it active in the essence of the self. Accordingly, the problem posed by this research is embodied in a series of questions: What is the role of language in cultural identity? What crises does this identity face if language retracts from performing its role? What is the role of language in preserving cultural identity and enhancing its values and establishing its features?

Keywords: Language; Identity; Cultural Identity; Cultural Criticism; Culture

1. مقدمة:

ارتبط مفهوم الهوية الثقافية باللغة من منظور أنّ الهوية الثقافية أداتها الأولى اللغة، دالة عليها، بأنظمتها، ودلالاتها، وأبنيتها، وقواعدها التي تميزها عن غيرها من اللغات، معبرة عن واقع الثقافة في تصوير أنماط الحياة، وأشكالها المركبة، والمعقدة، وممارسات أفرادها، بهذه اللغة، بما يلائم ردود أفعال الفرد في المجتمع، ويمثل هويته الثقافية حسب ما يمليه المحيط في إدراكه هذا الواقع على الصورة التي يراها مناسبة لنمط حياته، وتمثيل قيمه.

ولهذا كله طُرحت قضية الهوية وعلاقتها بالثقافة واللغة ضمن اهتمامات العلوم الاجتماعية بدءاً من القرن العشرين، الذي عرف حروباً عسكرية وصراعات سياسية، وإن عُرِفَتْ إشكالية الهوية قبل الاحتلال العسكري الحديث، مع الحملات الصليبية والتصفيات العرقية والممارسات السلطوية ضدّ المهمّشين والأقليات والمستضعفين، وهنا نطرح سؤالاً: كيف تحافظ اللغة في استعمالها ودورها ووظيفتها ووظيفيتها على الهوية في صبغتها الحضارية التي يتجلّى فيها الانتماء ويخلص إليها الإرث التاريخي بعاداته وتقاليده وقيمه لأمة من الأمم؟

2. مفاهيم أساسية:

1.2. مفهوم الهوية : كلمة "الهوية" في المفهوم اللغوي هي الشيء عينه وتشخيصه، وخصوصيته ووجوده المتفرد الذي لا يقع فيه اشتراك⁽¹⁾، أما اصطلاحاً فهي: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"⁽²⁾ فالهوية هي نواة الحقيقة وأصلها، وهي التي ستصنع من الشجرة أو الذات تفرداً عن غيرها، وإليها ترد كل عناصر تميزها، ومن ثمة إحساس الفرد بتمييزه عن غيره وتفردّه بذاتيته، وهي تطلق على نسق مُركّب من المعايير والمشاعر المختلفة، كالشعور بالوجود المادي، والشعور بالوحدة،

والتكامل، والانتماء، والقيمة، والاستقلال، والشعور بالثقة، والشعور بالتمايز، والاستمرارية الزمنية.

2.2. مفهوم الثقافة: من مفهوم (ثقف) ما جاء في لسان العرب في المجلد العاشر: «يقال ثقف الشيء، وهو سرعة التعلم»، ويقول ابن دريد: «ثقفت الشيء حذقته»، وفي حديث الهجرة: «هو غلام شاب لقن ثقف» [رواه البخاري]، أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، يقول العلامة فريد وجدي في (دائرة معارف القرن العشرين/ المجلد الثاني): «ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق، وثقف العلم في أسرع مدة، أي: أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفا: غلبه في الحذق، والثقيف: الحاذق الفطن»، والمعجم الحديثة تقول: «ثقف ثقافة: صار حاذقاً خفياً، وثقف الكلام فهمه بسرعة»⁽³⁾ قد وردت في بعض آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾⁽⁴⁾. بمعنى (أصبتموهم ولقيتموهم).

كما يعرف أحد علماء الاجتماع المحدثين "روبرت بيرستد" في أول الستينيات الثقافة في مفهومها الاصطلاحي بأنها هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في مجتمع، ووفق هذا التعريف تحدّد الثقافة باتجاهين: اتجاه يتكون من منتجات عقلية، أساسها: القيم- المعتقدات- المعايير- الرموز- الإيديولوجيا، الفنون، الأخلاق، القانون، العرف، المعرفة، واتجاه آخر يربط الثقافة بنمط الحياة الكلي لمجتمع ما، والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وتوجّهات هؤلاء الأفراد في حياتهم.

3.2. مفهوم اللغة: يتعدّد مفهوم مصطلح (اللغة)، إذ يطلق عليها: اللسان، واللهجة، والمعطيات اللغوية التي ضمتها المعاجم اللغوية وكتب اللغة، وهي رموز وإشارات صوتية لها دلالات أو معانٍ المتواضع عليها، وهي "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" في تعريف اللغوي ابن جني [ت 392 هـ] في كتابه [الخصائص]، وهي نظام رمزي للتواصل باستعمال العلامة اللغوية بين الأفراد والجماعات، ومن ثمة فهي في نظر بعض الدارسين ظاهرة اجتماعية، تشكّل جزءاً من ثقافة الأفراد، بل يعبرها هؤلاء الأفراد عن ثقافتهم وهويتهم في تواصلهم بها، فهي تحمل في دلالاتها ومعانيها وأبنياتها ومنتها وأصواتها وقواعدها القدرة على تمثّل أهوائهم ونوازعهم وعواطفهم وأفكارهم وهو الأمر نفسه الذي تختزنه ذاكرتهم الثقافية ويعكس هويتهم.

4.2. مفهوم الهوية الثقافية: لا يخرج هذا المفهوم عن معنى الانتماء في اقترانه بما يميز ثقافة عن أخرى في قيمها وأخلاقها ومعتقداتها وعاداتها وسلوكياتها أو ما أطلقنا عليه الكلّ المركّب الذي يشكّل عناصر الثقافة في تمايزها عن غيرها من الثقافات، لتشكل لبنة الهوية الثقافية ونواتها، وتفردها وتميزها عن "الأخر"، وللهوية الثقافية مستويات ثلاثة، أولها الهوية الفردية أو الذاتية، وهي شعور الفرد بفردانيته أي أنّه هو نفسه وليس غيره، يتحرّك ضمن ثقافته الكلية وثقافته الفرعية وتحرّك فيه، بقدر اقترابه أو ابتعاده عن منظومة القيم المعيارية في مجتمعه⁽⁵⁾، فهي عبارة عن "أنا" لها "آخر" داخل الجماعة نفسها حسب ما ذهب إليه المفكر محمد عابد الجابري، وثانيها الهوية الجماعية أو الجمعية، والجماعات داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة، لكلّ منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، وثالثها الهوية الوطنية أو القومية لأنّ الأمة نسب روعي تنسجه الثقافة المشتركة وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبّر عنها الإرادة الجماعية، والوفاء للتاريخ والأرض، وهذا المستوى أوسع نطاقاً، وأكثر قابلية للتعدّد والتنوع⁽⁶⁾. وفق هذه المستويات فإنّ كل هوية ثقافية تتمايز عن أخرى، بعناصرها ومكوناتها.

3. اللغة نواة الهوية الثقافية: في سياق الحديث عن اقتران اللغة بالهوية واللغة بالثقافة التي جاءت نعتاً للهوية لا بُدّ أن نحدّد الأبعاد الكثيرة التي تتضافر مشكلة الهوية الثقافية في جسمها وتراصّ أعضائها، التي تتنوّع بين النظام الثقافي الذي تؤسّسه البنية الاجتماعية في أشكال تعبيرها اللغوية إزاء سلوك ما، وردود أفعالها، وتعاطي هذا النظام الثقافي ممثلاً في المثقف بشكل فعّال مع قيمه الاجتماعية والإنسانية وثوابته القومية، لذلك على الواقع اللغوي ممثلاً في الأفراد والمجتمعات التي تتواصل بهذه اللغة ألاّ يستخفّ بالأخطار المحدّقة بلغته أمام سيولة الحياة وتقويض الأفكار والقيم والمناهج، والمدّ الثقافي الذي يهتم بخلق ثقافة جديدة، أساسها الاستهلاك خارج نطاق القيم والمبادئ، وتقليص المدلول عوض توسيع أهميته، ويكون ذلك بتعظيم الأمة للغتها، وتحريرها من التبعية، إذ لا هوية ثقافية في غياب اللغة أو الاستخفاف بها، تنصهر اللغة في الهوية، ولا تقوم قائمة الهوية، بعناصرها ومعاييرها، بعاداتها الثقافية، وقيمها وقوميتها، ودينها وتاريخها خارج إطار اللغة، فاللغة هي الحامل الأكبر للمنتج الثقافي وهي الجسر الأعظم للمسوّق الإعلامي، وهي السيف الأمضى في الاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلّل أيديولوجي أو اندساس حضاري، واللغة هي أم المرجعيّات في تشييد المعمار الحضاري، وفي بناء صرحه

الثقافي، بل هي التي تصنع الهوية وتؤثتها، إذ لا هوية بغير ثقافة ولا ثقافة بغير لغة، تترسخ جذور الهوية دوماً بالوجه الثقافي الذي تعدّ اللغة جزءاً أساسياً منه بوصفها حاضنة التراث الفكري، وناقلةً لفكره المعرفي، كما تحيا اللغة وتدوّن وتبقى بفضل التوارث الثقافي، فالهوية الثقافية قوام الوجود الحضاري، وعليها مدار السيرورة التاريخية⁽⁷⁾.

- إذا كانت الهوية انتماء ومعطى حضارياً وإذا كانت اللغة اكتساباً ومعطى وظيفياً، فإنّ حال الثقافة -في إطار الهوية الثقافية- كما يقول بينديكت (R.Benedict) كحال اللغة، إذ يمكن أن ندرك الثقافة بنفس الطريقة التي ندرك بها اللغة، إذ تشتمل الثقافة على قواعد خاصة وصيغها المختلفة، وهي كاللغة لأنها تنطوي في ذاتها على صور إدراكية للعالم والكلمات، وهي أيضاً كالرموز الثقافية إذ تشكل فئات إدراكية متقطعة للعالم الخارجي⁽⁸⁾.

ومن ثمة علينا أن ندرك أنّ صون هويتنا الثقافية يكمن في المطلق والثابت من اليقينيّات، ومعايير الثقافة التي تقوم على عقل الحدوس، والخوف من كل ما يمس الهوية ويزعزع ثوابتها من ذلك الأسرة، والمدرسة، واللغة بوصفها رمزا من رموز البنية الثقافية، فهي من ثوابت الهوية التي يتحدّ فيها المعقول بالذات، نتمثلها، نتمسك بها، لأننا نؤمن بها في ذواتنا، ولا يمكن بحال الخروج أو الحيد عنها، كما من الضروري في المقابل أن يقوم هذا الصّون في اتجاه الرفض والمواجهة لكل ما هو وافد من الثقافات التي تكرّس التبعية والانسلاخ من ركائز الهوية على هدي الفيلسوف "مالك بن نبي" الذي يرى أنّ الأفكار لا تستورد، وأنّ بناء حضارة لا يتم عن طريق تكديس منتج الآخر، بوصف الثقافة إحدى مراحل التقدّم في حضارة ما، إنّ لم نقل أنّ التطور الحضاريّ مرهون بصون هذه الثقافة، ويتعلّق الأمر أكثر هنا بالجوانب الفكرية بما في ذلك اللغة، لأنّ اللغة وعاء الفكر، وهي الوجود بكل أبعاده وأزمته كما يذهب إليه هايدغر، وبالمقابل لا يمكن لحضارة أيا كان مستواها أن تبيع روحها، أو شراء حضارة الآخر لطمس هويتها، إيماناً منا أن الحضارة امتداد ثقافي وإبداع لا تقليد واستسلام، وننطلق هنا من أنّ تقدّم حضارة من الحضارات مرهون بثقافتها وما تتميز به هذه الحضارة وإلا ستجد الهوية الثقافية نفسها وجهاً لوجه في صراع مع "الثقافة المضادة"، وهو مصطلح أطلق على أيّ تعبير ثقافي يحاول أن يحلّ محلّ الثقافة التقليدية بمعناها المؤلف، إنّ اللغة في تحديد دورها، وقيمة هذا الدور الذي تؤديه

في صياغة الهوية الثقافية سلاح ثقافي وحضاري، إذا أغفلنا قيمته قد يغمد في نحورنا، لذلك لابد لنا من حلول تسهم في صون الهوية الثقافية .

4. أزمات الهوية الثقافية: تعاني الهوية مثل غيرها من الحقائق التي تؤثر وتتأثر، من شقوق ورضوض تقوّض وجودها، وتزلزل ركائزها، لأنّها تمثّل الإنسان في كينونته ووجوده، من جهة، ولأنّها متعددة الإضافات من جهة أخرى (هوية الفرد، هوية الجماعة، هوية الأمة...) وإذا كانت الهوية تنطوي على عوامل وجودها، وبذور نمائها فإنّها -وذلك هو منطق الأشياء- تنطوي على بذور فناءها وانشطارها، حيث تتعرّض وبفعل عوامل متعدّدة تربية واجتماعية وثقافية للتشويه والانكسار.

لذلك من الأزمات التي قد تتعرّض لها الهوية الثقافية الإقصاء، الذي يكون سببا في انعدام الإحساس بالأمن الهوياتي، وانتشار العدوانية، إقصاء معالم الهوية من لغة وثقافة وغيرها مما يكون سببا في استلاب شخصية الفرد وانتمائه وتهديد لبقائه، فتلجأ بعض المجتمعات المهتدة في هويتها وثقافتها إلى الحروب دفاعا عن كيائها وثقافتها، أو تنسلخ عنها، فتغزو متبوعة، لأنّه كلما تزعزعت اليقينيّات وثوابت الهوية التي يتّحد فيها المعقول بالذات، والروابط الروحية في حياة ما أو مجتمع ما، حينما يفقد مبرراته لأبّد أن يقوم بعمليات تعويض في جوانب أخرى، يبحث عن ركائز جديدة لهويته وأفكاره ونشاطاته الإنسانية وغيرها، ومن ثم لغة أخرى، وثقافة أخرى، بما أنّه ينأى عن كل ما يمتّ بصلّة إلى هويته الثقافية، نظرا لاتساع الهوة بين هويته التقليدية ومبرراتها التقليدية الموروثة الثابتة بما في ذلك اللّغة والثقافة إلى واقع تفكّكت فيه المفاهيم، وثقافة ليس لها ضوابط، ولا تحكمها قواعد، فغدت كالجذموور حينما يتفرّع لا تحدّه حدود، فكلّما طرأت تحولات مسّت بنية الثقافة انسحب الأمر على الأسس التقليدية الموروثة التي تشكّل الهوية، وغدت بذلك الهوية الثقافية تتأرجح بين وحدة القيم وبنية التفكيك، والمخطط التالي يبين ذلك:



الشكل 1: الهوية الثقافية بين وحدة القيم وبنية التفكيك

إذا وجد الموروث الثقافي نفسه بين القيمة [وحدة القيم] والبنية [بنية التفكيك] فإنّ الوعي -وقتئذ- يعيش تمرّقاً بين عقل اليقين وعقل التجارب، هذا الأخير الذي يحاول أن يزيح الوعي، والضمير، والعقل من المركز الذي كان في نظر البراديغم يستند إلى الهوية الثقافية بحقيقتها المطلقة وصفاتها الجوهرية⁽⁹⁾، وعلى الثقافة التي تقوم على وحدة القيم الاجتماعية والإنسانية، لأنّ الإنسان في ثقافة الهوية بمفهومها المتعارف عليه يقوم على البحث عن تمكين المعنى المؤدّي إلى الحقيقة، وهدفه هو ربط التواصل بين مرجعيته الثقافية ورؤيته المستقبلية، لا يتم ذلك إلا انطلاقاً من هذه القيم التي تستند إلى المرجعية

اللُّغوية والدينية والاجتماعية وغيرها من مظاهر الثقافة ومعالَم الهوية التي تعدّ الحامل الحقيقي للمعنى.

تعرف بعض الثقافات في وقتنا الحاضر بنية التفكّك، والواقع المُمزّق، لأنّها تفتقد الوحدة والمرجعية الثقافية، كما أنّ المعنى الحامل للقيم ملغى، لأنّنا أمام ثقافة معلّبة مشيئة، ثقافة المظاهر، ثقافة أصبحت تؤسّس لعوامل جديدة، تحوّل كل ما هو هش وشكليّ وبما تحمله من دلالات السطوح إلى هوية ثقافية جديدة متعدّدة وغير متجانسة في جميع هُويات البشرية، أصبح الإنسان في ضوء هذه الثقافات المفكّكة الممزقة ألياً لا يهتم بالفضائل والأخلاقيات، يعاني تفكّكا قوامه الكشف عن الشذوذ الذي يمارسه الإنسان على نفسه قبل الآخرين، وأساسه التشظّي والتذرر والتفتت، نتيجة صعود المعنى اللامعقول، هذا الشذوذ الذي أصبح يحيل إلى كل ما هو هامشي وخارج نطاق ما هو سائد، والمتأبّي عن العُرف المتّبع في ثقافات الهوية القديمة، أصبح الواقع فيه يعرف مرحلة الانفلات، بعد أن أصبح مرتبنا بنتاج الشيئية.

5. دور اللغة في صون الهوية الثقافية:

1.5. إصلاح اللّغة: وجب على كل من يحاول إصلاحا لغويا أن يعتمد قبل كل شيء إلى دراسة حياة اللّغة، ومناهج تطوّرها، وما تخضع له في حياتها من قوانين، يكون ذلك بإشعار الآخرين في العالم الذي سيطرت فيه لغة ما، بأنّ اللّغة تحمل من المقوّمات والخصائص والاحتواء العلمي والمعرفي والتكنولوجي والحضاري ما يؤهلّها لأن تكون لغة عالميّة ترقى إلى المستوى الحضاري والمعرفي، وكلّما احتلّت اللّغة هذه المنزلة وبلغت هذه المرتبة أحوالت بالضرورة إلى الهوية الثقافية وعزّزتها ورسختها، بوصفها معبّرة عن فكر الأمة وناقلة لتقاليدها وقيمها من خلال الأجيال التي تتداولها، لأنّه كلّما تحققت نجاحات علميّة تركت صداها على المجال النّفسي والتطوّر الرّوحي نظير الروابط الخفيّة والظاهرة بين مجالي العلم والنّفس.

هذا إضافة إلى أنّ اللّغة في هذا الإطار تمثّل روح الأمة، وتمثّل المحيط الاجتماعي الذي يقوم على اللّغة في تواصله، وحواراته، وضبط سلوكياته وتوجيه فكره، والتعبير عن مكنوناته النفسية، والإدلاء بقرائحه، وبناء الكيان الإنساني القائم على قوة لغته، فلكلّ لغة قوية هوية ثابتة صامدة أمام المحن، كما أنّ لكلّ هوية قوية أسباب وراء قوّتها منها اللّغة والثقافة.

5. 2. الوعي اللغوي: إن الوعي بقيمة اللغة والانتماء يُمدّد عمر اللغة في الزمن، ويوسّعها في المكان، ويرسخها في التاريخ، وهو صمّام أمان في المستقبل، وتلكم هي معايير الهوية، ولا يكون ذلك إلا بالعصبية الثقافية، فإذا «قويت العصبية، عزّت اللغة، وثارَت لها الحميّة، وتكون تلك العصبية للغة القومية مادة وعونا لكلّ ما هو قوميّ، فيصبح كلّ شيء أجنبيّ قد خضع لقوّة القاهرة غالبية، هي قوّة الإيمان بالمجد الوطنيّ واستقلال الوطن، ومتى تعيّن الأوّل أنّه الأوّل، فكلّ قوى الوجود لا تجعل الذي بعده شيئاً إلاّ أنّه الثاني، فاللغة هي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميّزاً قائماً بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحدّ بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الزّوج ودليل الحبّ على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعِلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرّية وطموحها، فإنّ روح الاستعباد ضيق لا يتسع⁽¹⁰⁾.

والحلّ يكمن هنا في تخطيط يقوم على منظومة لغوية تقدّر القيم المرجعية للأمة، ولا تتجاوز معاييرها الثابتة وضوابطها وسننها اللغوية المرجعية التي تعدّ جزءاً من الهوية الثقافية، فإذا أردنا لأمّ الصدع الهوياتي وغلّق شقوقه، لأبدّ للغة من أن تفرض قدرتها السحرية في تأصيل القيم، قيم الاعتزاز بالهوية الثقافية، هذه القدرة تكمن في المهارات اللغوية الراسخة المرتبطة أساساً بالثقافة، فهما وجهان لعملة واحدة، وكلتاها اللغة والثقافة من الرّموز والأبعاد الأكثر خطورة في التعبير عن الهوية، لأنّ غياب الوعي بقيمة اللغة في صناعة السيادة والقرار والحفاظ على الإرث القومي والفكري لأمة من الأمم، بوصفها وعاء الفكر وخزانة، سيؤدّي الأمر حتماً إلى تعطلّ في جميع الأصعدة، علميّة واقتصادية، وفكرية وحضارية، وعلى كل الأجيال، مستقبلها وحاضرها. ويكون الوعي الثقافي بالاعتزاز باللغة، نظير تلازم اللغة والهوية، فاللغة حلقة وصل بين التراث الثقافي لأية أمة ومستقبلها الثقافي، وبين الماضي والمستقبل تتحدّد الهوية ضعفاً وقوّة، بلغتها، فاللغة عماد الهوية ورمز من رموزها العليا.

يكون الوعي اللغوي أيضاً في شعور الأمة، وفكرها، ومبادئها، القائمة على الدين والعادات والسلوك بلغتها، لذلك على الأمة أن تكون حريصة على لغتها، ناهضة بها، متّسعة فيها، مُكبّرة شأنها، بها تحقّق وجودها وتحمل عظمة ميراثها، فإذا انقطع شعب من نسب

لغته التي هي منشأ أفكاره وعواطفه وتفكيره وآماله، انقطع من نسب ماضيه الذي يمثل ثقافته، وأصبحت هويته محفوظة في متحف التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر والثقافة والهوية، حتى إنّ أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء، تشعبت ثقافتهم باختلاف ألسنتهم، وتمزقت هويتهم بانقطاع نسبهم للغة واحدة، رغم أنّهم من أب واحد⁽¹¹⁾. إنّ تداعي الوعي اللغوي حتما يؤدي إلى تداعي الوعي بمفهوم الهوية إلى درجة الانحلال الثقافي، وتهوي معاييرها، في إطار ربط السبب بالنتيجة وما ينجر عنها، إنّ الاستحقاق الثقافي عماد الهوية التي تعدّ جزءا من المسلمات الذاتية، لذلك تعالت الأصوات بضرورة إنقاذ اللغة لأنّ ذلك يعدّ إنقاذا للهوية وحماية لها من الانهيار والتهوي.

5.3. التداول اللغوي: تكمن أهمية وخطر الدور الذي تؤديه اللغة في تداول الثقافة باللغة القومية، على جميع الأصعدة، والقنوات، فضلا عن المدرسة والجامعة والمؤسسات التعليمية المختلفة، وبدءا قبل كل هذا في الأسرة، ففي تداولها الثقافي ترتقي اللغة في أحضان شريحة عريضة من أفراد المجتمع، ولا تبقى حبيسة العلم والمعرفة فحسب، تحتك بالأفراد في دور السينما، وركح المسارح، وفي الأصوات التي تصدح بالغناء، وفي كل وسيلة تواصلية يعبر بها الإنسان عن فكره وتأمّله في الوجود، وكل هذا ينطلق من وعي لغوي بأن يكون الإبداع الثقافي في التعبير عن الهوية بلغة الفكر، فتتزاوج اللغة والثقافة في التعبير عن الهوية، بل في تأصيلها وبعث قيمها، بعيدا عن التلبيح الثقافي الذي من شأنه أن ينحرف إلى مزالق هوياتية قد تكون شرخا بين الثقافة واللغة، ويولّد حالة من الانفصام بين الخطاب الثقافي واللغة المتداول بها.

إنّ عزل لغة عن استعمالها في الفكر وتوظيفها في المعرفة، هو عزل عن ثقافتها، واستئصال لجذور هويتها الصلبة، وزعزعة لأسباب نمائها، فلن يتحوّل الشعب أو ينسلخ عن قيمه، أو يعزل من جذوره أوّل أمره إلّا من لغته، فاستصغار لغة وتراجع دورها هو عامل انهيار ثقافي من داخل انتمائها ونموّها، في واقعها ومقاومتها، لما تتعرّض له في هذا الواقع، في تشكّلاتها الجزئية وانغلاقها عليها، أو انفتاحها على غيرها من الهويات في ثقافتها، ومن له أدنى قدر من الفصاحة يعلم أنّه من المتعذّر على أيّ مجتمع أن يؤسس منظومة معرفية دون أن يمتلك منظومة لغوية تكون شاملة، مشتركة، متجدّرة، حمّالة للأبعاد المتنوعة فكريا

وروحا وإبداعا، ومدار الرابطة المعقدة بين اللغة والفرد والجماعة، أنّ اللغة سابقة للفرد، باقية بعده، لا تحيا إلا بتداول الأفراد لها، ولكنها تموت وتنقرض إذا ما أعرض الأفراد عن تداولها.⁽¹²⁾

كما أنّ انعزال الفرد لا يمكن أن يساعد في استقبال الثقافة أو يرسل إشعاعها، فعزل اللغة وانعزال الفرد لا يسمح للأفكار والأشياء في المجال الاجتماعي أن تتحول إلى عناصر ثقافية إلا إذا تألفت أجزاؤها فأصبحت تركيبا، كما لا يمكن أن تتجمع الألوان والأصوات والروائح والحركات والأضواء والظلال... في المجال الطبيعي وأن تتمثلها ذاتيتنا إلا إذا اتخذت صورة (تركيب)، فأصبحت مجموعة من الألوان وطائفة من الأصوات وطائفة من الروائح وكتلة من الحركات وحزمة من الأضواء والظلال، هذه التراكيب الجزئية مستمدة من الطبيعة، ثم يأتي دور ذاتيتنا بعد ذلك حين تحوّلها إلى تركيب أكثر تعقيدا كالرسم والموسيقى... ومن مجموع هذه التراكيب الجزئية يتألف تركيب عام هو الثقافة.⁽¹³⁾

5. 4. التخطيط اللغوي: لأبد من وضع تخطيط لغوي ينهض بدعائم الهوية ومقومات ثقافتها، ويكون ذلك على مستوى الأفراد والمجتمعات والمؤسسات الثقافية والحكومية، خاصة إذا أدركنا أنّ التخطيط اللغوي لا يقل أهمية عن التخطيط الغذائي أو الاقتصادي أو العسكري، فإذا أدركنا أنّه بالتخطيط الغذائي أو الاقتصادي أو العسكري، تُحتلّ دول، وتنهار أخرى، فإنّما الغزو الثقافي يبدأ باللغة، فيزرع بذور الشك في اللغة، ويصغر شأنها، ويحتقر أمرها، فلا يلحق النذلّ شعبا إلا من إذلال لغته، والجدول الموالي يوضح تصورا لتخطيط لغوي على مستوى الأفراد والمجتمعات والمؤسسات الثقافية والحكومية:

الجدول 1: تصوّر لتخطيط لغوي على مستوى الأفراد والمجتمعات والمؤسسات الثقافية والحكومية

الأفراد	المجتمعات	المؤسسات الثقافية والحكومية
- قرض اللغة أداة تواصل. - ضرورة تمكّتهم منها. - ثقّتهم في أصالتها. - ضرورة التعبير عن أفكارهم وقيمهم بها. - توظيفها.	- الوعي بقيمتها. - توظيفها في استعمالاته اليومية. - إكبار شأنها. - التواصل بها في مختلف الأنشطة الاجتماعية.	- أخذ قرارات حاسمة سيادية: - فرض تعلّمها واستعمالها. - تطوير الفكر وبنائها بها. - إصلاح أعطائها. - تقديمها على غيرها من اللغات الأجنبية. - ترسيخ الوعي اللّغوي والثقافي.

وقد انتهت إلى هذا المشهد الثقافي المؤسسات الحكومية والثقافية والأمميّة، مثلما ورد في كتاب عبد السلام المسدي "الهوية العربية"، صفحة 279، فقد قرّرت اليونسكو في مؤتمرها (المكسيك 1981) إعلان مبدأ حوار الثقافات، وخصّصت له عقدا من السنين سُمي بال عشرية الثقافية [1988-1997]، كما أعلنت عن معاهدة دولية محورها "الإعلان العالمي عن التنوّع الثقافي" من أهمّ مبادئه إقرار حق الدول في انتهاج السياسات الثقافية التي تحدّد لها نفسها، وإقرار مبدأ حماية المنتج الثقافي الخاص بكلّ شعب، وإقرار حق كلّ شعب في التمسك بلغته القومية بوصفها الرمز الأكبر لهويّته الثقافية، لذلك أضيفت إلى ميثاق التنوّع الثقافي وثيقة الحقوق اللّغوية، وقد جاء في ديباجتها: «أنّ اللّغة ليست أداة للاتصال واكتساب المعرفة فحسب، بل هي أيضا مظهر أساسي للهوية الثقافية ووسيلة لتعزيزها سواء بالنسبة إلى الفرد أو إلى الجماعة»، وقد تمت المصادقة على المعاهدة في 20 تشرين الأول أكتوبر 2005.

كما على اللّغة في هذا التخطيط أن تحتضن لهجاتها بمنظومتها اللّسانية، بما يخدم قواعدها العامة الشاملة وأسسها اللّغوية واللّسانية، حتى لا تتزعزع اللّغة القومية، ولا يتراجع دورها، وتبقى حاملة لتراثها، محتوية لقيمها، وعاكسة لثقافتها، مواجهة لمخاطر الانزلاق اللّغوي الذي من شأنه أن يؤجج حروبا لغوية وثقافية، وتشظيّا هوياتيا، كلّ هذا من

شأنه أن يجرّ إلى حروب كونية لا تُحمد عقباها، قد تصل إلى اندثار لغات قومية بل إلى أمم كانت تعبّر عنها أو تعبّر بهذه اللغة.

فإذا احتضنت اللغة الأم بناتها من اللهجات التابعة لها لسانا ونطقا وحروفا، فرضت سلطانها، وحصّنت رمزيّتها تحصينا منيعا، متينا، ورصّت أسوار قوميتها عاليا، وحققت نفوذاً لغويا من شأنه أن يحيي هويتها الثقافية، بل تفوز بعلوم العصر وسلطة المعرفة، لأنّ من الأخطار الذاتية المحدّقة باللغة، المزعزعة لأركان الهوية من داخلها ومن صميم بنيانها وأساسها الذي هو اللغة تلهيج الثقافة، فإذا غدت اللهجة عنوانا للهوية الفردية، معبرة عن قيم الأمة في سياق تواصلها الثقافي وبديلا عن اللغة القومية، وقتها ستصبح هذه اللغة مهدّدة في بقائها، لأنّ اللهجات كما اللغات تتنازع القومية والهوية، وإذا ضعفت اللغة القومية وتراجعت عن أداء دورها بين أهلها أثّرت اللغة الأجنبية في الخلق العام للأفراد وسلوكهم وانتمائهم تأثير العنصر الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه، فتتداعى كل القيم القومية وتتهار.

6. خاتمة:

لا يمكن لنا أن نثبت أو نحقق وجودنا الذاتي والاجتماعي والثقافي بمنأى عن اللغة، فاللغة مرتبطة بالهوية الثقافية، لأنها هي التي تنقل موروثها وتشكّل وتحتوي ملامحها عبر سيورة التاريخ.

نحن الآن بحاجة إلى إعادة بناء العلاقة بين الإنسان وهويته في عالم عرف وترك لنا ما يؤكد خطر الصراع الذي تعرفه الهويات والدمار الذي يخلفه هذا الصراع على الفرد وثقافته وإنسانيته.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- مجموعة مؤلفين، دراسات في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى، 1984، ص: 18.
- 2- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، حققه وعلّق عليه: نصر الدين تونسي، شركة ابن باديس للكتاب، ط: الأولى، 1430 هـ- 2009 م، ص: 396.
- 3- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440 هـ- 2019 م، ص: 19.

- 4- البقرة، 191.
 - 5- ينظر: محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- منشورات تالة- الأبيار- الجزائر، 2003، ص: 95-96.
 - 6- ينظر: الجابري محمد عابد، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، 1998، ص: 14.
 - 7- عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت- لبنان، ط: الأولى، 2014م، ص: 267 و271.
 - 8- إليكسميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، تنفيذ، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1993، ص: 27.
 - 9- ينظر: بكوش جميلة، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ط: الأولى، 2021، ص: 29.
 - 10- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت، ج: 3، ص: 651، 653.
 - 11- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ص: 652.
 - 12- ينظر: عبد السلام المسدي، الهوية العربية، ص: 263-273.
 - 13- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 64.
- قائمة المصادر والمراجع:**
1. إليكسميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، تنفيذ، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1993.
 2. بكوش جميلة، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ط: الأولى، 2021.
 3. الجابري محمد عابد، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، 1998.
 4. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، حققه وعلّق عليه: نصر الدين تونسي، شركة ابن باديس للكتاب، ط: الأولى، 1430 هـ- 2009م.
 5. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت- لبنان، ط: الأولى، 2014م.
 6. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440 هـ- 2019م.

7. مجموعة مؤلفين، دراسات في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى، 1984.
8. محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- منشورات تالة- الأبيار- الجزائر، 2003.
9. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت، ج: 3.